الولاء

عناصر الموضوع

مفهوم الولاء	٢٣٢
الولاء في الاستعمال القرآني	٢٣٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٣٤
اقتران الولي بالنصير في القرآن	٢٣٦
ولاية الله تعالى لعباده	٢٣٧
ولاية الملائكة للمؤمنين	٢٥٢
ولاية المؤمنين	٢٥٦
ولاية الشيطان	٢٦٤
ولاية الكافرين والمنافقين والظالمين	٢٧٠
أساليب القرآن في الحديث عن الولاء	٢٧٧
الولاء في المثل القرآني	٢٨٠

مفهوم الولاء

أولًا: المعنى اللغوي:

أصله من مادة (ولي)، والوَلْيُ: القرب والدنو، يقال: تباعد بعد وَلْيٍ، أي: تباعد بعد قرب، وكل مما يليك: أي مما يقاربك، والولاء: الموالون، يقال: هؤلاء ولاء فلان، أي: موالوه، و(الولاء): ولاء المعتق، بمعنى: أن يكون ولاء المعتق لمعتقه بأن يكون هو الأولى في إرث معتقه إن لم يكن له وارثٌ من نسبه.

ويطلق (الولاء) أيضًا على التتابع، يقال: والى بينهما ولاءً: أي تتابع، وافعل هذه الأشياء على الولاء، أي: على التتابع، وتوالى عليه شهران: أي: تتابع، وتوالت عليه الأخبار: أي: تتابعت.

ومنه أيضًا: تولى العمل: إذا تقلده، وتولى عنه: إذا أعرض، وولى هاربًا: إذا أدبر، والولي ضد العدو، و(الولاية): السلطان والإمارة، ومنه وليت الأمر أليه ولاية، ووليت على الصبي والمرأة، والفاعل والٍ، والجمع ولاة، و(الولاية) بالفتح والكسر: النصرة، وبالفتح أكثر، يقال: هم على ولاية، أي: مجتمعون في النصرة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، الذي يدور حول الحب والنصرة، وعرفه أبو عاصم البركاتي، فقال: «هو حب الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباعه المسلمين، ونصرة الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباع المسلمين»[(١)].

وذكر محماس بن عبد الله الجلعود تعريفًا للموالاة، فقال: «هي التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا لمن يتخذه الإنسان وليًّا، فإن كان هذا التقرب والود مقصودًا به الله ورسوله والمؤمنون، فهي الموالاة الشرعية الواجبة على كل مسلم، وإن كان المقصود هم الكفار على اختلاف أجناسهم، فهي موالاة كفر وردة عن الإسلام»[(٢)].

فالولاء يتمثل في المحبة والمودة والاتباع والنصرة، وهذه معانٍ جليلة وقيمة أراد الإسلام ترسيخها في نفوس المسلمين.

(١) الولاء والبراء في الإسلام، ص٤.
(٢) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، ١/ ٢٨.

الولاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ولي) في القرآن الكريم (٢٣٢) مرة، يخص موضوع البحث (١٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة:١٤]
الفعل المضارع	١١	﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]
المصدر	٢	﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف:٤٤]
اسم الفاعل	١	﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١]
اسم المفعول	٢١	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١]
الصفة المشبهة	٨٦	﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٧٠]

وجاء الولاء في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الرب: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤] يعني: ربًّا.

الثاني: الولد: ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾[مريم:٥]. يعني: ولدًا.

الثالث: الناصر: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾[الدخان: ٤١].

الرابع: المولى الذي يعتق: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:٥].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٤٦-٧٤٧.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦١٣، ٦١٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٨٠، ٢٨٤، الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٢٠٠، ٢٠١، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، ص٤٩٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ النصرة:

النصرة لغةً:

مصدر من مادة (نصر)، والنصر هو إعانة المظلوم، يقال: نصره على عدوه، ينصره نصرًا، والاسم النصرة وهي العون[١].

النصرة اصطلاحًا:

قال المناوي: «النصر والنصرة: العون»[٢].

الصلة بين النصرة والولاء:

يتضح أن النصرة من مستلزمات الولاء؛ لأنه كما ذكر سابقًا أنَّ الولاء يتحدد معناه في الحب والنصرة، فمن والى شخصًا أحبه، ويقتضي هذا الرضا بأفعاله، ونصرته والدفاع عنه إذا تعرض لظلم، أو ما شابه.

٢ التعاون:

التعاون لغةً:

تعاونوا: أعان بعضهم بعضًا، وقالوا: عاونه معاونةً وعوانًا، أعانه، والمعوان: الحسن المعونة للناس[٣].

التعاون اصطلاحًا:

قال الراغب: «التعاون: التظاهر»[٤].

الصلة بين التعاون والولاء:

لاشك أن التعاون والمظاهرة من مستلزمات الولاء أيضًا، فمن والى شخصًا أعانه وظاهره على عدوه.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٤٤٣٩، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٠٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٣٢٥.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٣٥/ ٤٣١.
(٤) المفردات، ص ٥٩٨.

٣ البراء:

البراء لغةً:

مصدر من (برأ)، وهو التباعد عن الشيء، ومنه البرء وهو السلامة من المرض، والوصف منه براء، وبريء، وهما لغتان في القرآن، والبراءة تكون من العيوب والمكاره[١].

البراء اصطلاحًا:

البراءة «هي انقطاع العصمة»[٢]، وقال الألوسي: «هي عبارة عن إنهاء حكم الأمان، ورفع الخطر المترتب على العهد السابق»[٣]، وقال محمد بن سعيد القحطاني: «هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار»[٤].

الصلة بين البراء والولاء:

يتبين أن العلاقة بينهما متناقضة، فالبراء ضد الولاء، وهو متمثل في البغض والمعاداة، فالأمران لا يجتمعان.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٢٤٠.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٣٦٥.
(٣) روح المعاني، ١٠/ ٤٢.
(٤) الولاء والبراء في الإسلام، ص٩٠.

اقتران الولي بالنصير في القرآن

اقترن اسم الله تعالى (الولي أو المولى) باسمه تعالى النصير ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم، منها -على سبيل المثال- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ [النساء:٤٥].

وقوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران:١٥٠].

وذكرنا في العلاقة بين الولاء والنصرة، أن النصرة من مقتضيات الولاء ومستلزماته، وعليه يكون اسم الله تعالى (النصير) هو مقتضى اسمه تعالى (الولي أو المولى). قال البقاعي في بيان حكمة اقتران الولي بالنصير عند تفسيره لآية النساء المذكورة: «﴿وَلِيّٗا﴾ أي: قريبًا بعمل جميع ما يفعله القريب الشفيق.

ولما كان الولي قد تكون فيه قوة النصرة، والنصير قد لا يكون له شفقة الولي، وكانت النصرة أعظم ما يحتاج إلى الولي فيه، أفردها بالذكر إعلامًا باجتماع الوصفين مكررًا الفعل والاسم الأعظم اهتمامًا بأمرها فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ أي: الذي له العظمة، ﴿نَصِيرٗا﴾ أي: لمن والاه فلا يضره عداوة أحد، فثقوا بولايته ونصرته دونهم، ولا تبالوا بأحد منهم ولا من غيرهم، فهو يكفيكم الجميع»[(١)].

وقال الشعراوي في تفسيره لذات الآية: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ نعم كفى به وليًّا؛ لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب، والحق تعالى هو الذي خلق الأسباب، فيملك ما هو فوق الأسباب، ولذلك يقول مطمئنًا لنا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ -٣].

و(الولي) دائمًا هو من يليك مباشرة أي: أنه قريب منك. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ إذن فهناك قريب، وهناك أيضًا نصير، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك، لكن الله ولي ونصير، فما دامت المسألة مسألة معركة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾، كأن الحق ينبهنا: إياكم أن تقولوا إننا نلتمس النصرة عند أحد، اصنعوا ما في استطاعتكم أن تصنعوه، ثم اتركوا ما فوق الاستطاعة إلى الله»[(٢)].

(١) تفسير المراغي ٢/ ٢٦٢.
(٢) تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٢٧٨.

ولاية الله تعالى لعباده

إن الكلام عن ولاية الله عز وجل لعباده تتطلب بيان أن الله جل جلاله هو وحده الولي، وأن ولايته تعالى تنقسم إلى قسمين: ولاية عامة لجميع خلقه، وولاية خاصة لأصفيائه المؤمنين مع شرح موجبات هذه الولاية لهم خاصة دون غيرهم، بالإضافة إلى شرح أسباب الحرمان من ولاية الله عز وجل، وتفصيل هذه الأمور فيما يأتي:

أولًا: الله تعالى هو الولي:

لقد سَمَّى الله عز وجل نفسه باسم (الولي)، فهو من أسمائه الحسنى، وعرف الزجاج هذا الاسم بقوله: «هو فعيل من الموالاة، والولي الناصر وهو تعالى وليهم أي: المؤمنين.

بأن يتولى نصرهم وإرشادهم، كما يتولى ذلك من الصبي وليه، وهو يتولى يوم الحساب ثوابهم وجزاءهم»[(١)].

وقيل: (الولي) هو المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، ومن أسماء الله عز وجل أيضًا: (الوالي)، وهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها، وكأن الولاية تحمل معنى التدبير والقدرة والفعل معًا، فأي عنصر فُقِدَ منها، فلا يطلق على صاحبها اسم الوالي[(٢)].

وهناك آيتان قرآنيتان فقط أثبتتا أن الله تعالى هو الولي، وهما: قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

فنلحظ من قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ في الآية الأولى أنَّ الضمير (هو) ضمير فصل يفيد التأكيد والحصر والقصر، ففي هذا التركيب قصر جنس الولي بهذا الوصف على الله تعالى وحده، وبما أن المشركين قد عبدوا غير الله عز وجل، فيكون المعنى المراد هو قصر الولاية الحقة على الله تعالى وحده. يقول ابن عاشور: «وأفاد ضمير الفصل في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ تأكيد القصر وتحقيقه، وأنه لا مبالغة فيه تذكيرًا بأن الولاية الحق في هذا الشأن مختصة بالله تعالى»[(٣)].

ويظهر هذا المعنى جليًّا في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ حيث قصر صفة الولي والحمد على الله جل جلاله وحده دون غيره.

لأجل هذا يعترف المؤمنون دائمًا بأن

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، ص ٥٥.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٤٩٢٠.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٥/ ٤٠.

الله عز وجل هو وليهم ومولاهم. يقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

والمعنى أن الله تعالى لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده، وللنفس الإنسانية ما كسبت من خير، فلها الثواب عليه، وعليها ما اكتسبت من الشر، فعليها العقاب عليه، ثم أرشد الله عز وجل المؤمنين إلى هذا الدعاء الذي تكفل لهم بإجابته، وهو: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تعاقبنا على فرضٍ تركناه، أو على حرامٍ فعلناه نسيانًا، أو أخطأنا الصواب في العمل جهلًا منا بواجبه الشرعي، ويؤيد هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه**)[(١)].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة -وإن كانت في طاقتنا- كما كلفت الأمم الماضية قبلنا كبني إسرائيل، أما رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فتحمل التيسير والتخفيف والسماحة، فهو نبي الرحمة المهداة للأمم جميعها.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من التكليف والمصائب والبلاء، فلا تبتلينا بما لا قدرة لنا عليه من الفتن.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ فيما بدر منا من معصية بيننا وبينك.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ فيما بدر منا من زلل بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على عيوبنا.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ فيما يستقبل، فجنبنا وباعد بيننا وبين الوقوع في ذنوب أخرى.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: متولي أمورنا، ومالكنا، وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، وكذبوا رسالة نبيك، وعبدوا غيرك، فأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة[(٢)].

ونخلص من هذا إلى أن الله تعالى هو ولي المؤمنين حيث يتولى نصرهم وإرشادهم، كما يتولى ثوابهم وجزاءهم يوم

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٢٠٤٣، عن أبي ذر الغفاري، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ٣/ ١٩٩.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ٣/ ١٧٧١، رقم ٦٢٩٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ١٣٥.

الحساب، وأيضًا هو المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، فهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها.

ثانيًا: ولاية عامة للخلق جميعًا:

عرفنا أن الله تعالى وحده هو المتصف بالولاية الحقة، فإذا كان كذلك فهو الأولى بالعبادة والأحق بها مما يعبد من دونه من الآلهة والأوثان؛ فلهذا السبب نعى الله عز وجل على المشركين وأنكر عليهم اتخاذهم آلهة يعبدونها من دونه جل جلاله، فقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

كما أخبر فيها أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده عز وجل، فإنه وحده القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير[(١)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

فالله تعالى هو الذي ينزل المطر الغزير الذي يغيث البلاد والعباد من بعد انقطاعه مدة يظن بها الناس أنه لن يأتيهم، فينشر الله عز وجل بالمطر رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيستبشرون بذلك ويفرحون، فالله جل جلاله هو الولي الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بما يصلح لهم دينهم ودنياهم، كما أنه الحميد في تدبيره على ما له من كمال مطلق، وما يوصله إلى خلقه من ألوان الإفضال وأنواعه[(٢)].

وفي هذا المعنى يأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين قائلًا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤].

أي: قل لهم يا محمد: أغير الله تعالى أتخذ وليًّا معبودًا أواليه بالعبادة والمحبة، وأشركه مع الله الذي أبدع السماوات والأرض، وهو الغني عما سواه، الذي يطعم عباده ولا يطعم، ولا يحتاج إلى من يطعمه، فهو الذي يرزق ولا يرزق، كما أمرت أن أنقاد بكليتي إلى هذا الإله الحقيقي[(٣)].

ونخلص من هذا إلى أن الله تعالى هو وحده الولي، وولايته عز وجل ليست كأي ولاية، فهو تعالى الولي الذي يتولى أمور الخلائق، وهو مالك التدبير، وهو الولي الذي صرف لخلقه ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، كما أن هذه الولاية

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٩٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٥٨.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٠٣.

للخلق جميعًا دون تمييز بين مؤمن، أو كافر، أو منافق، فهي ولاية عامة لجميع الناس.

ثالثًا: ولاية خاصة لأوليائه وأصفيائه وموجباتها:

إن الله تعالى اصطفى أهل الإيمان من خلقه، وحظاهم وأولاهم رعايته ونصرته، فقال جل جلاله فيهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقيل في معنى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أقوال، منها: الحافظ، والناصر، فهو ناصر المؤمنين وحافظهم، وسمَّى الله تعالى نفسه وليًّا؛ لأنه يلي أمور الخلق من النصر والحفظ والرزق وغيره، ومنه سمي الولي وليًّا؛ لأنه يلي أمور الناس[١].

ومعنى الآية أنَّ الله تعالى وليُّ الذين آمنوا حيث يتولاهم بالنصرة والإرشاد، فهو وحده الذي يخرجهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، أو يخرجهم من ظلمات العذاب في النار إلى نور الثواب في الجنة، ولا يقدر على هذا إلا الله عز وجل[٢].

وهذا يوسف عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

فنادى ربه: يا رب أعطيتني من نعمة الدنيا الجاه والسلطان، ومن نعمة العلم تفسير الرؤيا، فيا مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق، أنت يا رب متولي أموري وشؤوني في الدنيا والآخرة، فاقبضني مسلمًا، واجعل لحاقي بالصالحين[٣]، فلا بد لهذه الولاية كي تتحقق من موجبات؛ لأن هذه الولاية لا تعطى ولا تمنح لأي شخص، وهذه الموجبات متمثلة في ثلاث:

١. الإيمان.

يقول الله عز وجل في بيان ولايته لأهل الإيمان: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

والمعنى: إن أحق الناس بنصرة إبراهيم عليه السلام وولايته هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، فوحدوا الله تعالى مخلصين له الدين غير مشركين به، ثم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام كذلك، فإن الله تعالى سوف ينصر المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم، المصدقين له في نبوته، وفيما جاءهم به من عند الله عز وجل،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٤١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ١/ ٣٢٨.
(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ٦٣.

فسينصرهم على من خالفهم من أهل الملل الأخرى[1].

ويقول تعالى أيضًا في هذا الصدد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١].

والمعنى: أن الله جل جلاله هو ولي المؤمنين وناصرهم، وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد عندما صاح المشركون: يوم بيوم -يقصدون عندما انتصر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في بدر-، لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم[2].

وفي المقابل فالكافرون لا ينصرهم من الله تعالى أحد. قال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]: «وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغون عنه بدلًا ولا يشركون به أحدًا، قد اتخذوه حبيبًا ووليًا، ووالوا أولياءه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور»[3].

فالمؤمنون أمة واحدة يجمعها الإيمان بالله عز وجل، والتصديق بكل ما جاء به من غير تفريق بينهم بالأجناس والألوان والقوميات والأوطان، فصورة المؤمنين هذه من حيث تجمعهم هي أرقى صورة للتجمع البشري الذي يليق به.

٢. **التقوى.**

يقول الله عز وجل في بيان ولايته لأهل التقوى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤].

والمعنى: ما كان الله عز وجل ليعذب المشركين والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، لكنه سوف يعذبهم بعدما يفارقهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف لا يعذبون والحال أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنه عام الحديبية، وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام، نصد من نشاء، وندخل من نشاء، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي لم يستحقوا أن يكونوا ولاة البيت الحرام وهم مشركون، فولاته الحقيقيون هم المسلمون، وقيل: إن الضميرين في (أولياءه، أولياؤه)

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٤٩٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٢٣٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص١١١.

يرجعان إلى الله عز وجل[1].

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٩-١٨].

فهذه الآية تتحدث عن بني إسرائيل الذين أنعم الله تعالى عليهم، وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، وفضلهم على عالمي زمانهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم، فاختلفوا واتبعوا أهواءهم، فبين الله تعالى أنهم لن يغنوا عن النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى شيئًا، وأن المتصفين بالظلم لا ولاية بينهم وبين الله تعالى، والله جل جلاله المتصف بجميع صفات الكمال والجلال والجمال هو ولي المتقين الذين همهم الأعظم هو الاتصاف بالحكمة عن طريق اتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله تعالى وعذابه، ولا ولاية بينه وبين الظالمين[2].

٣. الصلاح.

يقول الله عز وجل على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب المشركين قائلًا: لا أبالي بكم وبشركائكم؛ لأن وليي هو الله عز وجل الذي أنزل القرآن العظيم الناطق بأنه وليي وناصري، وإن شركاءكم الذين تعبدونهم من دون الله تعالى لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلًا عن نصركم أنتم، فالله عز وجل من عادته أن يتولى الصالحين من عباده، وينصرهم ولا يخذلهم[3].

وهكذا تتضح ولاية الله تعالى الخاصة بأوليائه وأصفيائه المؤمنين المتقين الصالحين.

رابعًا: آثار ولاية الله للمؤمنين:

إن المؤمنين عندما يتخذون الله عز وجل حبيبًا ووليًّا فلا يتولون غيره، ولا يشركون به شيئًا، ويوالون أولياءه، ويتبرؤون من أعدائه، فإن الله تعالى سوف ينعم عليهم من مَنِّهِ وإحسانه الشيء الكثير، فتظهر عليهم آثار ولاية الله تعالى لهم.

ومن هذه الآثار: قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٦٤٣.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/ ٨٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٠٧.

والمعنى: إن أولياء الله تعالى الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده، ويتوكلون عليه، ولا يتخذون من دونه أندادًا، ولا أولياء، ولا شفعاء، فإنه لا خوفٌ عليهم يوم القيامة مما يخاف منه غيرهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، كما أنهم لا يحزنون من لحوق مكروه بهم، أو ذهاب محبوب عنهم؛ لأنهم لا يقصدون بذلك إلا نيل رضا الله عز وجل، وكذلك لا خوف عليهم في الحياة الدنيا مما يخاف منه غيرهم من الكفار وضعاف الإيمان، فليس هذا الجزاء إلا لأولياء الله تعالى الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله جل جلاله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبين ملكة التقوى له عز وجل، فهؤلاء لهم البشرى في الحياة الدنيا بالنصر وحسن العاقبة، وباستخلافهم في الأرض ما أقاموا شرع الله تعالى، ونصروا دينه، وأعلوا كلمته[1].

ويقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧-١٢٦].

والمعنى: أن هذا البيان الذي جاء به القرآن الكريم، أو طريق التوحيد، وإسلام الوجه إلى الله جل جلاله، هو الطريق الذي ارتضاه الله تعالى مستقيمًا لا ميل فيه إلى إفراط أو تفريط في الاعتقاد والأخلاق والأعمال، ولا اعوجاج فيه إلى النظر إلى الغير والشرك به، فقد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز فيه الخير من الشر، ولكن هذا التفصيل، وهذا البيان ليس لأي شخص، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يذكرون المعارف والحقائق التي هي مستقرة في استعدادهم فيهتدوا بها؛ لأنهم هم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم.

وأعد الله تعالى لهم الجزاء الجزيل، والأجر الأوفى، وهو الجنة التي سماها الله عز وجل دار السلام؛ وذلك لسلامتها من كل عيب ونقص وآفة وكدر، وهمٍّ وغمٍّ، إلى غير ذلك من المنغصات والمكدرات التي كانت في الدنيا، فيلزم من هذا أن يكون نعيم الجنة في غاية الكمال، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون من نعيم الروح والقلب والبدن.

كما أن الله تعالى هو الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم، حيث لطف بهم في جميع شؤون أمورهم، وأعانهم على طاعته في الدنيا، ويسر لهم كل طريق إلى محبته، كلُّ هذا بسبب أعمالهم الصالحة التي قدموها في دنياهم، وقصدوا بها رضا مولاهم جل جلاله[2].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١١/ ١٢٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٤٨٨،

هذا وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (إن الله قال: **من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**)[1].

فبين النبي عز وجل أنه من عادى لله تعالى وليًّا فقد بارز الله تعالى بالمحاربة.

خامسًا: أسباب الحرمان من ولاية الله:

من خلال النظر في آيات الموضوع نجد أن أسباب الحرمان من ولاية الله عز وجل تتمثل في الآتي:

١. الكفر.

فالشخص الذي لا يؤمن بالله عز وجل كيف يكون الله تعالى وليه وناصره في الدنيا وفي الآخرة؟ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠-٢٣].

والمعنى: يأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين الكافرين المنكرين قضية البعث بعد الممات أن يسيروا في الأرض، فينظروا كيف بدأ الله تعالى الأشياء وأوجدها من عدم، ولم يتعذر عليه شيء من ذلك، فكذلك لا يتعذر عليه إعادتها مرة أخرى بعد فنائها، فإن الله تعالى قادر على ذلك، ولا يعجزه شيء.

وبعد إعادتهم بعد فنائهم، يعذب الله تعالى منهم على ما أسلف من ذنوب في حياته، ويرحم منهم من تاب وآمن وعمل صالحًا، ثم يبين الله تعالى لهم أن رجوعهم ومآلهم هو إلى الله جل جلاله، ثم يتوعدهم ويتهددهم بأنهم لن يعجزوا الله تعالى في الأرض ولا في السماء، ولن يكون لهم من دون الله عز وجل من ولي يلي أمورهم، ولا نصير ينصرهم من دون الله تعالى إن أراد بهم سوءًا، كما لا يمنعهم منه أحد إن أراد أن يوقع عقوبته عليهم.

ثم يذكر الله تعالى أن الذين كفروا بحججه تعالى، وأنكروا أدلته، وجحدوا

تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٧٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٠٢، عن أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥.

لقاءه والرجوع إليه يوم القيامة، فهؤلاء يئسوا من رحمة الله تعالى في الآخرة عند معاينتهم ما أعد الله تعالى لهم من العذاب الموجع[1].

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٥-٦٤].

أي: إن الله عز وجل لعن الكافرين فخذلهم وطردهم من رحمته، وأعد لهم في الآخرة جهنم ماكثين فيها أبدًا بلا انقطاع، فلا يجدون فيها وليًّا قريبًا ينفعهم، ولا نصيرًا مانعًا يمنعهم من عذاب الله عز وجل[2].

٢. النفاق.

إن الشخص المنافق هو الذي يظهر خلاف ما يبطن، حيث يظهر الإسلام، ويخفي الكفر، فخطره على الإسلام والمسلمين أشد من خطر الكفار؛ لأن عداءهم للمسلمين غير واضح ولا ظاهر، فمن اتصف بهذه الخصلة السيئة يحرم نفسه من ولاية الله عز وجل له في الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٣-١٧].

ففي هذه الآيات يبين الله عز وجل حال المنافقين في غزوة الأحزاب حيث تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما ظنوا أن المسلمين سوف ينهزمون في المعركة، وعندها لا يكون لهم نصيبٌ من الغنائم، فتعللوا بانكشاف بيوتهم، وضياع ما فيها، مع علمهم أنهم يكذبون في عذرهم هذا، فهم جبناء لا يريدون إلا مجرد الفرار مع أنهم عاهدوا الله تعالى سابقًا أنهم لن يولوا الأدبار.

لكن لما ظهر الجد لم يساعدهم الصدق، ولم يتذكروا أن الله تعالى سوف يسألهم عن العهود التي قدموها، فيعاقبهم على ما أذنبوا. عندئذٍ يأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أن الفرار من المعركة خوف القتل أو الموت لن ينفعهم؛ لأن الآجال إذا حان وقتها فلا تأخير لها، ولا تقديم عليها، وإن بقوا أحياء فلن يكون متاعهم في الدنيا إلا قليلًا.

كما يخبرهم أيضًا أنه من الذي يمنعهم من الله عز وجل إن أراد أن يوقع بهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٠، ٢٣.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٧٤.

مكروهًا، أو يحقق لهم أمرًا مرجوًا، ومن الذي يصرف عنهم دونه عدوًا؟![1].

٣. اتباع الهوى.

إن من لم يأتمر بأوامر الله تعالى، وينتهي عما نهى الله تعالى عنه، فإنه يعرض نفسه للحرمان من ولاية الله تعالى، وحفظه ورعايته ونصرته له.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرجو إيمان أهل الكتاب قبل غيرهم؛ لذلك كبر عليه إعراضهم عن إجابة دعوته، فأراد الله تعالى أن ييئسه من الطمع في إسلامهم، فعلق رضا أهل الكتاب عن النبي صلى الله عليه وسلم بما هو مستحيل أن يحدث، فليس غرض اليهود ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليه من الآيات، وما يوردونه من الأمور التي فيها تشدد وتعنت، فإنك يا محمد لو جئتهم بكل ما طلبوه تعنتًا لم يرضوا عنك، ثم أخبره الله تعالى بأنهم لن يرضوا عنك حتى يدخل في دينهم، ويتبع ملتهم.

ثم أمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠].

أي: أن الهدى الحقيقي محصور فقط في اتباع ما أمر الله تعالى به، لا فيما أنتم عليه من الكتب المحرفة، والشرائع المنسوخة، ثم أتبع ذلك بوعيد شديد للنبي صلى الله عليه وسلم إن فكر في اتباع أهوائهم، وحاول إرضاءهم وتلبية طلباتهم، ولا يخفى ما في هذا من تعريض لأمة النبي صلى الله عليه وسلم، وتحذيرًا لهم من أن يقعوا في شيء من ذلك، فإن لم يمتثلوا لأمر الله عز وجل حينئذٍ لن يجدوا من يكون لهم وليًا وناصرًا من عذاب الله عز وجل؛ لأن الله تعالى أعلمهم حقيقة اليهود وما هم عليه[2].

يقول سيد قطب رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

«فتلك هي العلة الأصيلة، ليس الذي ينقصهم هو البرهان، وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق، ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو ترددت إليهم ما ترددت، لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق. إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان إنها هي العقيدة. هذه حقيقة المعركة التي يشنها

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ١٥٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٥٧.

اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة»[1].

ويقول الله جل جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٧-٣٦].

هناك قولان في المقصود بـ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهما:

الأول: هم أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذين آتاهم الله عز وجل القرآن، فهم يفرحون بهذا القرآن النازل على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم اليهود والنصارى ينكرون بعض القرآن.

الثاني: المسلمون من اليهود أمثال عبد الله بن سلام وأصحابه، فهؤلاء قد ساءهم ذكر اسم الله تعالى (الرحمن) في القرآن الكريم مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كثر ذكره في القرآن فرحوا به، فأنزل الله تعالى الآية.

ويقصد بـ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ مشركي مكة، فلما عقد النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينهم صلح الحديبية، كتب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فاعترضوا قائلين: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، يعنون به مسيلمة الكذاب، وكانوا لا ينكرون اسم الله تعالى.

فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ﴾ ثم يذكر الله عز وجل أنه كما أنزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم، فأنكره الأحزاب، كذلك أنزل الحكم والدين عربيًا، فنسب إلى العرب؛ لأنه نزل بلغتهم، فكذب به الأحزاب، ثم توعد الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم أنه إن اتبع أهواء أهل الكتاب في الملة بعد ما جاءه من العلم الصحيح من الله تعالى، فلن يجد منه عز وجل ناصرًا ولا حافظًا[2].

٤. الضلال.

وهو عكس الهداية والتوفيق، فمن كان على ضلالة فكيف يكون الله تعالى وليه وناصره؟!

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

(١) في ظلال القرآن، ١/ ١٠٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٣٢٢.

أي: من وفقه الله تعالى إلى الهداية فهو المهتدي، فهؤلاء سبق لهم حكم الله تعالى بالإيمان، فوجب أن يصيروا مؤمنين، ومن سبق عليهم حكم الله تعالى بالضلال، استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال، وأن يوجد من يصرفهم عنه حين يحشرهم الله عز وجل على وجوههم خزيًا عميًا وبكمًا، لا يبصرون ولا ينطقون، فمقرهم ودارهم هي جهنم، كلما تهيأت للانطفاء، سعرها الله تعالى بهم، فلا يفتر عنهم العذاب، ولا يخفف عنهم من عذابها، فلم يظلمهم الله تعالى؛ بل جازاهم بسبب كفرهم بآيات الله تعالى، وإنكارهم البعث وكمال قدرته تعالى[1].

ويقول الله عز وجل مخبرًا عن حال أصحاب الكهف عندما كانوا بداخله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧].

فأيها المخاطب إنك ترى الشمس إذا طلعت فإنها تميل عن كهفهم جهة اليمين، وإذا غربت تقطعهم وتبعد عنهم جهة الشمال، وحال الشمس هذه كرامة لهم من الله عز وجل؛ لئلا تؤذيهم بحرها، وقد كانوا في متسع من الكهف بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ولا في آخره، وذلك الصنيع هو من دلائل قدرة الله تعالى الباهرة، فمن يوفقه الله تعالى للإيمان، ويرشده إلى طريق السعادة، فهو المهتدي حقًا، ومن يضلله الله تعالى بسوء عمله فلن تجد له من دون الله تعالى من يهديه ويرشده[2].

ونلمح من قصة أصحاب الكهف أن هؤلاء الفتية كانوا حريصين على الهداية واتباع دين الله عز وجل؛ لذلك كان الله تعالى لهم مؤيدًا وناصرًا، فلم يخذلهم، ولم يدع أيدي الشر تطالهم؛ بل أكرمهم الله جل جلاله بهذه الكرامة الباهرة، فمن يصدق الله يصدقه الله، وفي المقابل من لم يكن في داخله استعداد للهداية، فلن يجد له وليًا ومرشدًا إلى طريق الهداية والسعادة.

ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ

(١) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ١/ ٦٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٦٧.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ١٧٠.

﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤-٤٦].

حيث يخبر الله جل جلاله أنه وحده المنفرد بالهداية والإضلال، وأن من يضلله الله تعالى فبسبب ظلمه لنفسه بالمعاصي والذنوب والآثام، فما له من ولي يتولى أمره ويهديه[١]، فكان ضلاله وعدم هدايته إلى طريق الرشاد سببًا من أسباب الحرمان من ولاية الله تعالى له، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٣٢].

٥. **الظلم.**

يقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٧،٨].

والمعنى: أن الله تعالى أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن وهو كلام عربي، واقتضت الحكمة الإلهية اختيار الأمة العربية لتكون أول من يتلقى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبة بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل القرآن بلغات لا تحصى، لكن الله عز وجل اختار له أفضل اللغات، كما اختار إنزاله على أفضل البشر، وهذا الإنزال لأجل إنذار المشركين من أهل مكة ومن حولها ما ينذرونه من العذاب في الدنيا والآخرة، وتنذرهم أيضًا يوم القيامة وما يكون فيه من أهوال وشدائد، وسمي بالجمع؛ لأن الخلائق تجمع فيه للحساب، ففريق من هذه الخلائق سيكون في الجنة، وفريق آخر سيكون في النار.

وهذا أمرٌ شاء الله تعالى تقديره بأن أوجد من أسبابه بحكمته، فلو شاء لقدر أسباب اتحادهم على عقيدة واحدة من الهدى، فيكونون جميعًا في نفس المصير في الجنة، ولكن الله جل جلاله شاء مشيئة أخرى جرت وفق حكمته، وهي أنه تعالى خلقهم على قابلية واستعداد للهدى والضلال، كما مكنهم من كسب أفعالهم، ووضح لهم طريق الخير من الشر، فكان منهم المهتدون، وهم الذين شاء الله تعالى إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بحرمانها من الهداية، وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم فتجاوزوا الحد، فهؤلاء ليس لهم ولي يدفع عنهم ما حاق بهم، ولا نصير يثأر لهم[٢].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٦١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/ ٣٥.

٦. **عمل السيئات.**

يقول الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣].

أي: ليس أمر النجاة والتزكية بالأماني التي يمني بها أهل الكتاب أنفسهم، وهي عبارة عن أحاديث وتوهمات وتخيلات مجردة عن العمل الصالح، فقد أخبر الله تعالى عن هذه الأماني عندما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾[البقرة:١١١].

فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان لا يفيد صاحبه شيئًا إن لم يأت بعمل صالح يبرهن على صدق دعواه، لذلك يقول الله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

والسوء هي كلمة شاملة لأي ذنب كان صغيرًا أم كبيرًا، قليلًا أم كثيرًا، دنيويًا أم أخرويًا.

والناس في هذا الأمر درجات لا يعلمها إلا الله تعالى، فمنهم مقل ومنهم مكثر، ومن كان عمله كله سوءًا -وهذا لا ينطبق إلا على الكافر- فإذا مات دون توبة إلى الله عز وجل جوزي بالخلود في العذاب الأليم يوم القيامة.

وحينئذٍ ليس له ولي يحصل له المطلوب به، ولا نصير يدفع عنه المرهوب إلا الله تعالى. أما من كان مستقيمًا في أغلب أحواله، ويعمل الصالحات، ويصدر عنه من بعض الذنوب الصغيرة، فما يصيبه من هم أو غم، أو أذى في نفسه، أو ماله، أو أهله، فإنها مكفرات لهذه الذنوب التي قدرها الله تعالى لطفًا بعباده[1].

كما يحذر الله عز وجل عباده من اللهو واللعب، وإضاعة العمر فيما لا يفيد، فضلًا عن عمل السيئات والذنوب، فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٧٠].

أي: يا أيها الرسول دع الذين اتخذوا دينهم -الذي كان يجب أن يتبعوا تعاليمه، ويهتدوا به- اتخذوه لعبًا ولهوًا، فإنهم لما عملوا هذه الأعمال التي ختم الله تعالى بها على قلوبهم، ودس بها على نفوسهم، ولم يعملوا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

فأضاعوا أعمارهم فيما لا يفيد، وهو

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٥.

اللعب، وشغلوا أنفسهم عن الجد والعمل المفيد، وهو اللهو، وغرتهم الحياة الدنيا، وغرهم بالله الغرور، فيا أيها الرسول أعرض عن هؤلاء، ولا تبال بأمثالهم، ولكن ذكر بالقرآن من يخاف وعيدي؛ لأنهم هم المنتفعون بالامتثال لأوامري، والاجتناب لنواهي؛ لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي قبل اقتحام العبد للذنوب، وتجرئه على الله عز وجل.

فذكرها يا محمد وعظها؛ لترتدع وتنزجر عن فعل ما لا يليق بالمؤمنين، فلن يكون لهذه النفس ولي ولا شفيع إن أحاطت بها ذنوبها، ومن ثم فلا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولى أمرها أحد من دون الله تعالى، كما لا يشفع لها شافع، وإن افتدت نفسها بملء الأرض ذهبًا، فلا يقبل منها ولا يفيد، فأولئك الموصوفون بتلك الصفات هم الذين أهلكوا أنفسهم وحرموها من الخير، فجزاؤهم ماء حار يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، وعذاب أليم بسبب ما كانوا يكفرون به[1].

٧. الاستكبار.

الاستكبار حالة تمنع صاحبها من نيل ولاية الله تعالى له، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٧٣-١٧٢].

والمعنى: لن يأنف ولن يترفع المسيح عليه السلام أن يكون عبدًا لله عز وجل، مستمرًا على عبادته وطاعته، حسب وظيفة العبودية التي شرف الله تعالى بها عباده، وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا أن يكونوا عبيدًا لله عز وجل، ثم بين الله تعالى على سبيل التهديد أن من يستنكف عن طاعة الله تعالى، ويطلب الكبر لنفسه من غير استحقاق له، فسوف يحشر المستنكفين إليه جميعًا لمحاسبتهم.

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصفوا بعدم الاستنكاف، فسيوفيهم الله تعالى أجورهم من غير أن ينقص منها شيئًا، ويزيدهم من فضلها بتضعيفها أضعافًا مضاعفة، وبإعطائهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأما الذين استنكفوا وترفعوا عن عبادة الله جل جلاله، واستكبروا، فسوف يعذبهم بسبب استنكافهم واستكبارهم عذابًا أليمًا

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمود حجازي، ص٦٢٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٦١.

لا يحيط به وصف، كما لا يجدون لهم من دون الله تعالى وليًا يلي أمورهم، ويدبر مصالحهم، ولا نصيرًا ينصرهم من بأسه عز وجل، وينجيهم من عذابه[1].

ولاية الملائكة للمؤمنين

يتضمن الحديث في هذا المبحث عن أسباب ولاية الملائكة للمؤمنين وشرحها، وكذلك بيان الآثار المترتبة على ولاية الملائكة للمؤمنين، وتوضيح ذلك كما يأتي:

أولًا: أسباب ولاية الملائكة للمؤمنين:

من خلال النظر في آيات الموضوع نجد أن الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم، وجعلها موجبة لولاية الملائكة للمؤمنين تتمثل في ثلاثة أسباب:

١. إنعام الله عز وجل على أنبيائه بالنبوة والوحي والرسالة.

وخصوصًا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما تحدث القرآن عن ولاية الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم، وخاصة أمين الوحي جبريل عليه السلام في معرض الحديث عن أمرٍ حدث بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض زوجاته.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤-٣].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٦٠.

والمعنى: واذكر وقت إذ أسر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة حديثًا ما، فسره ابن عباس بأنه ذات يوم اطلعت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مع مارية أم ولده إبراهيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة: لا تخبري عائشة، وذكر لها أن أباها عمر بن الخطاب، وأبا عائشة أبا بكر الصديق سيليان أمر الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم تكتم حفصة سر رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، فانطلقت إلى عائشة وأخبرتها.

فأطلع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم على ما حدث، فأظهر بعضه، وأعرض عن ذكر البعض الآخر، وجازى النبي صلى الله عليه وسلم حفصة على ما بدر منها بأن طلقها طلقة واحدة، فقال لها عمر: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأمره جبريل بمراجعتها، وشفع فيها، وهناك رواية أخرى تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هم بطلاقها حتى قال له جبريل: لا تطلقها فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة، فلم يطلقها. فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بما أطلعه الله عز وجل عليه، قالت: من أنبأك بهذا يا رسول الله؟ -وكانت قد ظنت أن عائشة أخبرته- فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: نبأني العليم الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبعد ذلك حث الله عز وجل كلًا من حفصة وعائشة على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد مالت قلوبهما وزاغت عن الحق حتى أحبتا ما كره النبي صلى الله عليه وسلم من اجتناب جاريته مارية.

ثم أخبرهما على سبيل التهديد لهما بأنهما إن تتظاهرا وتتعاونا على النبي صلى الله عليه وسلم بالمعصية والإيذاء، فإن الله جل جلاله هو وليه وناصره، وحينئذٍ لا يضره ذلك التظاهر منهما، وكذلك جبريل عليه السلام هو مولاه، بالإضافة إلى صالح المؤمنين وخيارهم أيضًا، وكذلك الملائكة كلهم هم ظهراء وولاة وأعوان للنبي صلى الله عليه وسلم [1].

٢. **اعتراف المؤمنين الذين هم أولياء الله عز وجل بربوبيته، والتسليم لأوامره.**

٣. **استقامة المؤمنين على الصراط المستقيم علمًا وعملًا.**

وهذان السببان قد وردا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ١٨٦.

﴿٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

فهذا حال المؤمنين دائمًا حيث يقولون: ربنا الله وحده لا شريك له، ثم استقاموا على هذا التوحيد، ولم يلتفتوا إلى إله غير الله عز وجل، وأورد المفسرون أقوالًا في معنى استقامتهم، منها: إخلاصهم العمل لله تعالى، حيث عملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته، ومنها: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا، ومنها: عملهم على وفق ما قالوا، ومنها: إعراضهم عما سوى الله تعالى، ومنها: زهدهم في الدنيا ورغبتهم في الاخرة(١).

ولا مانع من كون هذه المعاني جميعها تدخل في معنى الاستقامة.

ثانيًا: آثار ولاية الملائكة للمؤمنين:

تتمثل آثار ولاية الملائكة للمؤمنين في النقاط الآتية:

أولًا: ورد ذكر آثار ولاية الملائكة للمؤمنين في نفس الموضع الذي ذكرت فيه الأسباب والموجبات، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

فهؤلاء المؤمنون الذين أقروا بربوبية الله تعالى وتوحيده، وداموا على هذا التوحيد حتى ماتوا، فلم يلتفتوا إلى إله غيره عز وجل، واستقاموا وثبتوا على أمر الله تعالى فامتثلوا لأوامره، واجتنبوا نواهيه، فهؤلاء يستحقون ولاية الملائكة لهم، فقد ورد في الحديث عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: (قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، فقال: (قل: ربي الله، ثم استقم) قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: (هذا)(٢).

ثانيًا: إن ولاية الملائكة لهؤلاء المؤمنين تكون بتنزل الملائكة عليهم بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم المخاوف والأحزان، كأن يبشروهم بنجاتهم عند الموت، وفي القبر وعند البعث، وكذلك إزالة الخوف من أهوال الآخرة، وإذهاب الحزن عما فاتهم من أمور الدنيا من أهل وما وولد، فإذا ذهبت أحزان الماضي،

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٩٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٤١٩، ٢٤/ ١٤٥.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٨٦٢، ٣/ ٥٦.

وأزيلت مخاوف المستقبل، حصلت الطمأنينة والسعادة وانشراح الصدر، كما إن الملائكة تقول لهم: أبشروا بدخول الجنة التي وعدكم الله تعالى بها على ألسنة أنبيائه ورسله، فإنكم ستستقرون بها، وتخلدون في نعيمها إلى الأبد.

ثم أخبر الله عز وجل عن قول الملائكة للمؤمنين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نحن نتولى أمور حفظكم ومعونتكم في الدنيا والآخرة، حيث ندفعكم إلى السداد والتوفيق والحفظ بأمر من الله تعالى، فنحثكم على فعل الخير، ونرهبكم من فعل الشر.

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإننا نكون معكم أيضًا حيث نؤنس وحشتكم في قبوركم، ونكون معكم عند النفخة في الصور، كم نؤمنكم من الفزع يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم، كما أن لكم في الجنة جميع ما تختارون وتطلبون وتشتهون، من أصناف اللذات وأنواع الطيبات مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فكل ما تتمنونه تحصلون عليه، فهو معدٌّ لكم سلفًا ضيافةً وعطاءً ومنًا من الله جل جلاله الذي غفر لكم ذنوبكم، ووفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم، فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب[1].

ثالثًا: إن ولاية الملائكة لهؤلاء المؤمنين تكون بتثبيت المؤمنين في ساحات الجهاد كما قال الله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون نعمة ربكم عليكم حين أوحى إلى الملائكة أن الله جل جلاله معكم بالعون والتأييد والنصر.

فأمر الملائكة أن تلقي في قلوب المؤمنين وتلهمهم الجرأة على عدوهم، وترغبهم في الجهاد وفضله، فإن الله تعالى سوف يلقي في قلوب الكافرين الرعب الذي هو أعظم جند للمؤمنين على الكافرين.

فإن الله عز وجل إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم ومكنهم الله تعالى منهم، حينئذٍ يأمر الله عز وجل المؤمنين أن يضربوا أعناقهم ومفاصلهم.

وهذا الخطاب إما أن يكون للملائكة الذين أوحى الله تعالى إليهم أن يثبتوا الذين

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٧/ ٢٢٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٤٨.

آمنوا فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو يكون الخطاب للمؤمنين بحيث يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم، وذلك لأنهم شاقوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة[1].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص٣١٦.

ولاية المؤمنين

يقتضي الحديث عن ولاية المؤمنين بيان موجبات هذه الولاية بين بعضهم البعض، بالإضافة إلى بيان آثار هذه الولاية على أصحابها، وكذلك بيان آثار ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين وآثارها، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

أولًا: موجبات ولاية المؤمنين بعضهم البعض:

هناك أمورٌ أو صفات تجمع بين المؤمنين مما يؤهلهم أو يوجب عليهم أن تكون الولاية بين بعضهم البعض، وقد ذكرت بعض آيات القرآن الكريم هذه الموجبات.

ومنها قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

فهذه الآية إما أن تكون على سبيل الإخبار من الله تعالى أن الدين الذي اعتنقه هؤلاء المؤمنون، وتمسكوا به، يوجب لهم الولاية، فيصير بعضهم أولياء لبعض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وإما أن يكون على سبيل الأمر، أي يأمر

الله عز وجل المؤمنين أن يتخذوا بعضهم أولياء بعض، ولا يتخذوا غيرهم أولياء، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١][1].

وذكر الماتريدي في تفسيره نوعين للولاية بين المؤمنين: أحدهما: ولاية روحانية، والأخرى: ولاية نفسانية، فقال: «**الأولى**: ولاية روحانية، وهي ولاية في الدين توجب مراعاة حقوق تحدث بالدين الذي جمعهم وحفظها.

والثانية: ولاية نفسانية، وهي الولاية التي تكون في الأنفس والأموال، من نحو ولاية النكاح والميراث وغيره.

فهذه الولاية هي الولاية النفسانية التي كانت بالرحم والنسب، فإذا اجتمعوا في دين واحد وجبت تلك الولاية لهم، وهي الولاية نفسها، والولاية الروحانية هي المودة والمحبة، فيجب مراعاتها بالدين وتعاهدها، وهذا كما تقول: حياة روحانية وحياة جسدانية، والحياة الروحانية: هي العلم والآداب، يرى أشياء ويعرفها من بعد الحياة الجسدانية: وهي الروح الذي به يحيا الجسد، وبذهابه يموت الجسد، والله أعلم»[2].

فهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المصدقون بالله عز وجل، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن العظيم، فإن صفتهم أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم وقلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف.

وعليه تكون هذه الموجبات متمثلة في النقاط الآتية:

أولًا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فإن الدين الذي اعتنقه هؤلاء المؤمنون، وتمسكوا به، يوجب لهم الولاية، فيصير بعضهم أولياء لبعض.

ثانيًا: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي يأمرون الناس بالإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله تعالى، والمعروف هو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من بر وخير، من العقيدة الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول ما يأمرون به أنفسهم.

ثالثًا: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة المزيفة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، فهم أول ما ينهون أنفسهم عنه.

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٥/ ٤٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٢٦.

رابعًا: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيؤدون الصلاة على أكمل وجه، ويخرجون زكاة أموالهم، ويعطونها لمستحقيها.

خامسًا: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الدوام[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر. ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفًا واحدًا.

لا تدخل بينها عوامل الفرقة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلة التي تربطهم بالله.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله، وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم»[2].

وفي موضع آخر بين الله تعالى من هو الولي الذي تجب موالاته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥].

أي: إن الولي الذي يجب على المؤمنين اتخاذه هو الله جل جلاله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون الذين من صفاتهم أنهم يقيمون الصلاة في أوقاتها المفروضة، ويؤدونها على أكمل وجه بكل خشوع وخضوع، وكذلك فهم يؤتون الزكاة ويؤدونها لمستحقيها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم[3].

ويروى في سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إن قومًا من قريظة والنضير قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا أن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٣٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٤٣.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٦٧٥.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٩.

لا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل، وشكى ما يلقى من اليهود، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء[1].

ونلحظ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ أن هذا أسلوب حصر يفيد القصر، أي: حصر وقصر الولاية الحقة فقط في وجوب الولاية لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين فقط، وما عداها فالمؤمنون منهيون عن اتخاذهم أولياء بالمصادقة والمناصرة والمعاونة، ويجب التبرؤ منهم.

هذا وقد كانت الموالاة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في بداية الدعوة الإسلامية في العهد المدني على أساس التوارث بينهم؛ لتعزيز هذا المفهوم وترسيخه بينهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٢].

والمعنى: إن الذين آمنوا وهاجروا من مكة حبًا لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، وهم الذين سموا بالمهاجرين، وكذلك الأنصار الذين آووا أولئك المهاجرين، ونصروهم على أعدائهم، فإنه يتولى بعضهم بعضًا في الميراث، فكان كل من المهاجرين والأنصار يتوارثون بالهجرة دون القرابة من الرحم والنسب، حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٦][2].

ثانيًا: آثار ولاية المؤمنين لبعضهم:

بعد أن ذكر الله عز وجل موجبات ولاية المؤمنين لبعضهم البعض، وصف آثار هذه الولاية الحقة للمؤمنين سواء كانت في الدنيا أم في الآخرة، وهي متمثلة في النقاط الآتية:

أولًا: رحمة الله عز وجل بهم: كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

فهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المتصفون

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١٩٩.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٦٥٨.

بتلك الصفات الموجبة لولاية بعضهم البعض سيفيض الله تعالى عليهم من آثار رحمته، ويشملهم بإحسانه، فأي شيء يبتغيه المؤمنون فوق رحمة الله عز وجل، وأي شيء يطلبون بعد فوزهم بجنته؟ فقد جعل الله تعالى سبب الوصول إلى رحمته يسيرًا سهلًا، وليس عسيرًا شاقًا؛ بل هو طلب كل إنسان عاقل يتصف بالصفات الواردة في الآية[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: « والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنما تكون في هذه الأرض أولًا، ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح. رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال بالله، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث، ورحمة الله في صلاح الجماعة، وتعاونها، وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة، واطمئنانه لرضاء الله»[2].

ثانيًا: الغلبة: كما في قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

قال الطبري: «وهذا إعلامٌ من الله -تعالى ذكره- عباده جميعًا الذين تبرؤوا من حلف اليهود وخلعوهم رضًا بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تمسكوا بحلفهم، وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتهم أن من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين، ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين، لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم؛ لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، دون حزب الشيطان»[3].

ثالثًا: الفلاح في الدنيا والآخرة: كما في قوله عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

والمعنى: لا تجد قومًا يجمعون بين الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر، وبين مودة أعداء الله تعالى ورسله، فلا يجتمع هذان ولا يتحققان.

وفي هذا التوصية بمجانبة أعداء الله عز وجل ومباعدتهم، والاحتراس من

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ص٢٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٦٧٦.
(٣) جامع البيان، ١٠/ ٤٢٧.

مخالطتهم ومعاشرتهم حتى ولو كان آباء الموادين، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، فإن قضية الإيمان تستلزم هجر المحادين حتى ولو كانوا أقرباءهم، فأولئك الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، أثبت الله تعالى في قلوبهم الإيمان، وقواهم بنصرٍ منه على عدوهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحًا؛ لأن به يحيا أمرهم، وليس هذا فقط؛ بل يدخلهم يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها إلى الأبد.

فرضي الله تعالى عنهم، وقبل أعمالهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة، كما أنهم رضوا عن الله عز وجل، ففرحوا بما أعطاهم عاجلًا وآجلًا، فأولئك حزب الله تعالى وجنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، ألا إن حزب الله تعالى هم الفائزون بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، وهم الكاملون في الفلاح[1].

وهكذا تتجلى آثار ولاية المؤمنين لبعضهم البعض في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين:

لقد حذر الله تعالى المؤمنين وتوعدهم على سبيل التهديد من اتخاذهم الكافرين والظالمين أولياء من دون المؤمنين، وبينَّا سابقًا أن الولاية الحقة قد حصرها الله تعالى في ولاية المؤمنين لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين أمثالهم، فتترتب على ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين جملة من الآثار، ومنها:

أولًا: براءة الله تعالى منه: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

والمعنى أنَّ الله تعالى ينهى المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعوانًا وأنصارًا يوالونهم على دينهم، ويظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، ويدلونهم على عوراتهم وأسرارهم، وتوعد الله تعالى أن من يفعل ذلك فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله تعالى منه، حيث ارتد عن دينه، ودخل في الكفر.

ثم استثنى من هذا الأمر حالة واحدة، وهي إذا كان المؤمنون تحت سلطان الكافرين، وكانوا في حالة ضعف يخافونهم على أنفسهم، فحينئذٍ يظهرون لهم الولاية باللسان فقط، ويضمرون لهم العداوة، فلا يعينونهم على مسلم، ولا يشايعونهم على ما هم عليه من كفر[2].

(١) انظر: فتح البيان، محمد صديق القنوجي، ١٤/ ٣٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٣١٣.

ثانيًا: وقوعهم في دائرة الكفر: حيث يقول جلَّ جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

والمعنى أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، بحيث يعاملونهم معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة، وعلل الله تعالى هذا النهي بأن هؤلاء اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، فكيف تتخذونهم أولياء؟

فبعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم، وكذلك بعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم، فهم يتعاضدون فيما بينهم، ويتناصرون على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وعداوة القرآن الذي جاء به من عند الله تعالى، ووجه تعليل هذا النهي أن هذه الموالاة هي شأن الكفار لا شأن المؤمنين، فلا يفعلوا ما هو من فعلهم، فيكونوا أمثالهم؛ لذلك عقب الله تعالى هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فتوعدهم وعيدًا شديدًا أن من يتولاهم منكم، فإنه من جملتهم وفي عدادهم.

ثم علل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن وقوع المؤمنين في الكفر إذا والوا الكفار هو بسبب عدم هداية الله تعالى لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر[1].

يقول السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعضٍ يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدًا على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون بضركم؛ بل لا يدخرون من مجهودهم شيئًا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم.

ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئا فشيئًا، حتى يكون العبد منهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين وَصْفُهُم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون، فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك»[2].

ثالثًا: الحكم عليهم بالضلال: كما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٣٥.

﴿أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:١-٢].

وكان سبب نزول هاتين الآيتين متمثلًا في قصة حاطب بن أبي بلتعة، وهو رجل من المهاجرين، وشهد غزوة بدر، وكان له في مكة مال وأولاد، ولم يكن حاطب من قريش نفسها؛ بل كان حليفًا لعثمان، فلمَّا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على فتح مكة بعدما نقضت قريش صلح الحديبية، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجهيز الغزو، واستعان على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: **(اللهم عم عليهم خبرنا)**.

فذهب حاطب وكتب كتابًا إلى قريش يعلمهم بما عزم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، وفعل ذلك؛ ليتخذ به عندهم يدًا، فأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك، وهذا من باب استجابة الله تعالى لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم السابق.

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا ابن أبي طالب والزبير والمقداد في طلب المرأة وأخذ الكتاب منها، حتى وصلوا إلى روضة خاخ، فوجدوها وأمروها بإخراج الكتاب، فنفت وجوده معها، فهددوها إما أن تخرج الكتاب، وإما أن ينزعوا الثياب ليخرجوه بأنفسهم، فأخرجت الكتاب من عقاصها، وأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فكلم النبي صلى الله عليه وسلم حاطبًا وسأله عن سبب ما فعل، فأجاب: لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من ذلك النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(إنه صدقكم)** واستأذن عمر بن الخطاب من النبي صلى الله عليه وسلم في ضرب عنقه، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: **(إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)** فأنزل الله تعالى الآيتين[1].

والمعنى أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن اتخاذ المشركين والكفار الذين هم محاربون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، فهم الذين شرع الله تعالى عداوتهم ومجانبتهم، ونهى أن يُتَّخَذُوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، فهم قد

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٤٢١.

أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بين أظهرهم؛ لما كرهوا منهم ما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله عز وجل وحده، فلم يكن لكم ذنب عندهم إلا أنكم مؤمنون بالله رب العالمين، فإن كنتم خرجتم جهادًا في سبيل الله تعالى تبتغون مرضاتي، فلا توالوهم، فهم أعدائي وأعداؤكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم؛ حنقًا عليكم، وسخطًا لدينكم، فإن أسررتم لهم بالمودة، فأنا أعلم بالسرائر والضمائر والظواهر، ومن يفعل ذلك فقد ضل الطريق المستقيم.

ولو قدر عليكم هؤلاء الكفار المشركون لما اتقوا منكم أذى ينالونكم به من القول والفعل، كما أنهم يحرصون على ألا تنالوا خيرًا، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون أمثال هؤلاء، ولا يخفى ما في هذا من تهييج للمؤمنين على عداوة الكافرين[1].

وخلاصة القول: أن من يوالي الكفار من المؤمنين دون عذر فهو منهم، وقد ارتد عن دينه، ورضي بالكفر بعد الإسلام، وقد ضل سواء السبيل، وقد ظلم نفسه بفعله هذا مما يعرضها لعقاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/٨٥٨.

ولاية الشيطان

يتطلب الحديث عن ولاية الشيطان توضيح صفات أولياء الشيطان، ومن ثم توضيح آثار هذه الولاية على أصحابها، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: صفات أولياء الشيطان:

إن أولياء الشيطان قد اتصفوا بصفات سبغت عليهم نتيجة ولايتهم للشيطان، حيث أكسبهم الشيطان هذه الصفات كي يقوموا بمهمتهم في مساعدته في إغواء الخلق، وقد تحدث القرآن الكريم عن تلك الصفات، فهي متمثلة فيما يأتي:

١. الشرك وعدم الإيمان.

يقول الله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

ففي هذه الآية يحذر الله تعالى بني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم آدم عليه السلام، حين زين له المعصية، ودعاه إليها، ورغبه فيها، ومن ثم كانت النتيجة أن انقاد له، فأنزل آدم وحواء من مكانهما العالي المرموق، فكما فعل بأبيهم ما فعل، كذلك يريد أن يفعل ببنيه، وهو لا يألو جهدًا

عنهم حتى يفتنهم عن دينهم إن استطاع، فعلى جميع المؤمنين أخذ الحذر منه، ولا يغفلوا عن المداخل التي يدخل منها الشيطان إليهم، فإن الشيطان يراقبهم على الدوام، ويراهم هو وقبيله من شياطين الجن من حيث لا يرونهم، فالله عز وجل جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، فعدم الإيمان موجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان[1].

أما المؤمنون فقد أخبر الله تعالى أنه لم يجعل للشيطان عليهم سلطانًا ولا سبيلًا، حيث قال جل جلاله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

فالمشركون الذين يتصفون بالشرك وعدم الإيمان هم أولياء الشيطان.

٢. الاغترار بالباطل.

تعد هذه الصفة مهمة في طريق اتباع الشيطان، ويكسبها الشيطان لأوليائه حتى يغويهم به، فالشيطان لا يحارب أهل الحق وحده؛ بل يحتاج إلى أتباع ومعاونين ومناصرين، ولا بد أن يكون هؤلاء الأتباع بعيدين كل البعد عن الحق والإيمان، ولا يتأتى هذا البعد إلا بزيادة اغترارهم بالباطل الذي هم عليه، فلا يرون الحق إلا فيما هم عليه، وغيره لا يكون صوابًا، فيدخل الشيطان إلى نفوس أتباعه من مدخل يتميز بضعفهم فيه، ألا هو حب الذات والظهور، فيبدأ الشيطان بالوسوسة لأتباعه، ويوحي إليهم أنه على حق، وأنهم هم الأقوى، وأن عليهم الآن محاربة المؤمنين بكل ما يتصفون به من كبر وغرور[2].

ويؤكد هذا الأمر قول الله عز وجل: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

ولقد بين الله تعالى هذه الصفة للشيطان وأتباعه المتصفين بالغرور بما هم عليه من باطل، حيث قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

أي: يخوفهم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة[3].

والمعنى: أيها المؤمنون، إنما الذي خوفكم بجموع عدوكم ومسيرهم إليكم هو الشيطان، فهو يخوفكم بأوليائه من المشركين؛ وذلك لترهبوهم، وتخافوهم، فنهاهم الله عز وجل عن خوف المشركين الذين هم أولياء الشيطان، وألا يعظم عليهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨٦.

(٢) انظر: الشيطان خطواته وغاياته، وائل بشير، ص١٢٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٧٢.

أمرهم، ولا يرهبوا جمعهم مع طاعتهم لله تعالى، واتباعهم أمره، فإنه جل جلاله متكفل للمؤمنين بالنصر والظفر، ثم وجههم إلى أن يكون هذا الخوف من الله -تعالى وحده-، فلا يعصوه ويخالفوا أمره إن كانوا مصدقين للرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من عند الله عز وجل [1].

وعليه فإن الشيطان يجعل أولياءه مغترين بالباطل الذي هم عليه، فيعظم صورة أوليائه في نظر المؤمنين، ويستعمل هؤلاء الأتباع والأولياء لتخويف المؤمنين.

٣. الخوف من الشيطان.

إذا كان الشيطان قد أغرى حب الذات والظهور في أوليائه، وهو من أشعل فيهم الكبر والغرور، وسخرهم الشيطان للحرب على الحق وأهله، فإن هؤلاء الأولياء يصبحون ضعفاء أمام سيدهم الشيطان فيخافون منه، وينفذون أوامره، ولا يعصون منها شيئًا.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

والمعنى: أن الله تعالى يخاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من بعده أنه إذا أراد الشروع في قراءة القرآن الكريم أن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ومن وساوسه، فإن الشيطان ليس له تسلط على إغواء المؤمنين المتوكلين على ربهم حيث يفوضون أمرهم إليه في كل قول وفعل.

وعليه فإن الإيمان بالله عز وجل والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، وإن وسوس لأحد منهم، فإن وسوسته لا تؤثر فيهم، فهم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠].

وقال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

ثم حصر الله عز وجل تسلط الشيطان على الإغواء على الذين يتخذونه وليًّا حيث يطيعونه في وساوسه، كما أنهم مشركون بالله تعالى، أو أنهم مشركون بالله بسبب وسوسة الشيطان لهم [2].

٤. الجدال بالباطل.

إن الحق والباطل في سجال شديد إلى يوم الدين، فكما أن الحق يحتاج إلى أعوان ليظهر وينتصر، فكذلك الباطل يحتاج إلى أعوان ونصراء ليواجه به الحق وأهله، فيواجهونهم به مرة، ويكيدون لهم مرة أخرى، فيزينون لهم الباطل، وهذا السجال من أهل الباطل الذين هم أولياء الشيطان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٤١٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٣١.

يحتاج إلى جدال، فيقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج:٣].

والمعنى: أنه يوجد من الناس من يخاصم ويجادل في دين الله تعالى بغير حجة ولا علم، ويتمرد على الله عز وجل. وقد بين الله تعالى أن ما يقوله هؤلاء الأولياء من جدال، وما يفعلونه من عداء للحق وأهله، إنما هو وحي من الشيطان إليهم، فيقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

روى أبو داود في سبب نزول هذه الآية أن اليهود جاءؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية[(١)].

والمعنى: أن الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه فسق ومعصية، وإن الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا أهل الحق بغير علم، ومعلومٌ أن المجادلة هي دف القول على طريق الحجة بالقوة.

وإن أطعتموهم أيها المؤمنون في تحليل ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه فإنكم مشركون بالله جل جلاله[(٢)].

يقول السعدي رحمه الله: « فإن المشركين -حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا معاندةً لله ورسوله، ومجادلةً بغير حجة ولا برهان: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟

يعنون بذلك: الميتة، وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل؛ بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتبًّا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة، ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم، طريقهم»[(٣)].

(١) أخرجه أبو داود، رقم ٢٨٢١، كتاب الضحايا، باب ذبائح أهل الكتاب، عن ابن عباس، ٣/ ٥٩.
وصححه الألباني: صحيح.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٧٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٧١.

ثانيًا: آثار ولاية الشيطان:

بعد عرض صفات أولياء الشيطان التي ذكرها القرآن الكريم، بين الله تعالى ما يترتب على ولاية الشيطان من آثار، ومنها:

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء:١١٦-١٢١].

ومعنى هذه الآيات: أن فيها إخبارًا من الله عز وجل عن طعمة بن أبيرق الذي مات على الشرك بأنه تعالى لا يغفر له، أما غيره من الذين لم يموتوا مشركين، فإن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم، ومن يشرك بالله تعالى فقد ضل عن طريق الهداية والصواب، وذلك بسبب بعده عن الحق، وإشراكه بربه عز وجل.

ثم أخبر الله تعالى أن هؤلاء المشركين ما يعبدون إلا أوثانًا لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، ولا تعقل، وفي حقيقة الأمر ما يعبدون إلا الشيطان الذي دعاهم إلى عبادة هذه الأوثان، فلعنه الله تعالى وطرده من رحمته بسبب إبائه لأمر الله عز وجل بالسجود لآدم، فقال الشيطان متوعدًا وحانقًا: لأتخذن من عبادك عددًا كبيرًا منهم يعبدونني، وهم معروفون بمعصيتهم لك، وطاعتهم لي.

ولم يقف هذا الشيطان عند هذا الحد؛ بل واصل قائلًا: ولأضلنهم عن طريق الهدى، ولأمنينهم بتعويقي إياهم عن طاعتك بالأماني الكاذبة المتمثلة في أنهم لا يلقون عذابًا، أو أن الله سوف يغفر لهم، ولآمرنهم فيطيعونني، فيجعلون لآلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله، كما يعلمونها بقطع آذانها؛ لتعرف أنها للآلهة، ولآمرنهم أيضًا فيطيعونني في تغيير خلق الله بالبدع والمعاصي.

ثم قال الله جلَّ جلاله: إن من اتخذ الشيطان وليًّا من دونه تعالى، فقد عاداه، ومن عاداه، فقد تم له أعظم الخسران، فالشيطان لا يملك من الأمر شيئًا، فكيف يحقق لأوليائه النجاة والسعادة؟ وحينئذٍ يعلن الله عز وجل حكمه في قوة ووضوح أن أولئك الشياطين وأولياؤهم سوف يكون مصيرهم إلى النار، ومن ثم لا يجدون عنها

معدلًا أو مهربًا[١].

هذا وقد بين الله عز وجل أن من يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله تعالى، فبئس ما اختار لنفسه من ولاية الشيطان الذي لا يأمره إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذي كل النجاة والسعادة والفلاح في ولايته[٢].

يقول جلَّ جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

ويقول جلَّ جلاله في موضع آخر: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:٣٠].

أي: من أقبل على الله تعالى بإيمان، هداه الله عز وجل، وخفف عنه مؤنة الطاعة، وبغضه في المعصية، أما الفريق الآخر الذي تأبىَّ على الله تعالى، ولم يستجب لهدايته، فكيف يعينه الله تعالى؟

فإنه يتركه في غيه ويخلي بينه وبين الضلالة، فالذين حقت عليهم الضلالة، إنما كان ذلك بسبب اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله عز وجل، ويحسبون أنهم على هداية في ارتكابهم للمعاصي، فهذا كفر وتبجح على الله تعالى[٣].

وعليه فإن من ثبتت ولايته للشيطان، وامتاز بصفات أولياء الشيطان، فإن الله تعالى أمر أولياءه المؤمنين بقتال أولياء الشيطان؛ لأنه إما أن يكون القتال في سبيل الله عز وجل، أو في سبيل الطاغوت، فوجب أن يكون كلُّ ما سوى الله تعالى طاغوتًا، كما بين الله عز وجل أن كيد الشيطان ضعيف، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

فالله تعالى ينصر أولياءه، وكذلك الشيطان ينصر أولياءه، ولكنه بما أن كيد الشيطان ضعيف، فولايته ونصرته لأوليائه ضعيفة أيضًا، والله تعالى ناصرٌ أولياءه لا محالة[٤].

وخلاصة القول: إن من آثار ولاية الشيطان، أن الضلالة قد حقت عليهم، فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه بخلاف دعوات الأنبياء والرسل، وزين لهم الشيطان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٩/ ٢٠٦، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥٤٣.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧٩.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٧/ ٤١١١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ١٤٢.

أعمالهم، وصار وليهم في الدنيا فأطاعوه واتبعوا أوامره، فعرضوا أنفسهم للقتال من قبل أولياء الرحمن، فلهم عذاب أليم موجع في الآخرة؛ لأنهم رضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا هذا العذاب، فيقول الله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل:٦٣].

ولاية الكافرين والمنافقين والظالمين

إن الحديث عن هذا الأمر يقتضي الحديث عن ولاية الكافرين لبعضهم البعض وآثارها، وكذلك الحديث عن ولاية المنافقين للكافرين وآثارها، وأيضًا الحديث عن ولاية الظالمين لبعضهم البعض وآثارها، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

أولًا: ولاية الكافرين بعضهم البعض وآثارها:

تحدث القرآن الكريم عن اتخاذ الكافرين بعضهم البعض أولياء، حيث يقول الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٨١].

والمعنى: إن الذين كفروا من بني إسرائيل لعنهم الله تعالى في التوراة والإنجيل، وفي الزبور، وفي القرآن، وذلك بسبب عصيانهم لله عز وجل، واعتدائهم على خلقه، ثم بين

الله تعالى حالهم حين كان لا ينهى أحدٌ منهم الآخر عن فعله المعاصي وارتكابه الآثام، ثم ذمهم على ذلك؛ ليحذر ما كانوا يفعلونه ويرتكبونه، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، ومن أَجَلِّ الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكًا لفاعل المعصية، ومستحقًّا لغضب الله عز وجل، وانتقامه، كما وقع لأهل السبت منهم، فإن الله تعالى مسخ الفاعلين، وكذلك الذين لم يشاركوهم في هذا الفعل، فصاروا جميعًا قردة وخنازير.

ثم ذكر الله تعالى أن من اليهود أمثال كعب بن الأشرف وأصحابه يتولون الذين كفروا من المشركين الذين ليسوا على دينهم بالمحبة والموالاة والنصرة، ثم ذم الله تعالى ما زينته وسولته لهم أنفسهم، أو بئس ما قدموه لأنفسهم حتى يعاقبوا عليه يوم القيامة، ففعلهم هذا موجب لسخط الله تعالى عليهم، وهذا واضحٌ أنه من آثار ولايتهم للمشركين أمثالهم.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله عز وجل، وبرسولهم الذي أرسله الله تعالى إليهم، وما أنزل عليهم من كتاب سماوي، ما اتخذوا المشركين أولياء؛ وذلك لأن الله تعالى ورسوله المرسل إليهم وكتابه المنزل عليهم قد نهوهم عن ذلك، ولكن أكثرهم خارجون عن ولاية الله تعالى، وعن الإيمان به وبرسوله وبكتابه[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطبق على حالهم اليوم وغدًا، وفي كل حين، كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم، مما يدعو إلى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن، وفي عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آنٍ.

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ويؤلبونهم على المسلمين، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾، كما حكى عنهم القرآن الكريم، وقد تجلى هذا كله على أتمه في غزوة الأحزاب، ومن قبلها ومن بعدها كذلك إلى اللحظة الحاضرة، وما قامت إسرائيل في أرض فلسطين أخيرًا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين!

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك، كلما كانت المعركة مع المسلمين! حتى و«المسلمون» لا يمثلون الإسلام في شيء. إلا في أنهم من ذراري

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٧٥.

قوم كانوا مسلمين!

ولكنها الإحنة التي لا تهدأ على هذا الدين ومن يتمون إليه، ولو كانوا في انتمائهم مدعين! وصدق الله العظيم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾»[1].

ويقول الله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

والمعنى: إن الكفار بعضهم أولياء بعض في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريق واحد ضد الحق وأهله-وإن كان بعضهم يعادي بعضًا-، ولم يكن في الجزيرة العربية وقت نزول السورة إلا اليهود والمشركون، فكان اليهود يتولون المشركين، وينصرونهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، كما أن هؤلاء اليهود قد نقضوا العهود التي كانت بينه وبينهم حتى قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأجلاهم عن خيبر.

ثم وجه الله تعالى خطابه إلى المؤمنين على سبيل التهديد والتوعد بأنهم إن لم يفعلوا ما شرع الله تعالى لهم من ولاية بعضهم البعض، ومن تعاونهم وتناصرهم تجاه ولاية الكفار لبعضهم البعض، فإن لم يفعلوا ذلك، فإنهم سوف يقعون في الفتنة والفساد في الأرض، وسيعود عليهم بالضرر بسبب تخاذلهم الذي يفضي إلى فشلهم وظفر الأعداء بهم، كما أنه يفضي إلى اضطهادهم في دينهم بصدهم عنه كما كان الحال مع ضعفاء المسلمين في بداية الدعوة الإسلامية في مكة قبل الهجرة[2].

ففي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ «فيه تعريضٌ للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار، ولا يتولونهم، وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين، وإيجاب المباعدة والمصارمة وإن كانوا أقارب»[3].

ثانيًا: ولاية المنافقين للكافرين وآثارها:

كما تحدث القرآن الكريم عن ولاية الكافرين لبعضهم البعض، فإنه تحدث عن ولاية المنافقين للكافرين، ووضح آثار هذه الولاية، فقال جلَّ جلاله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ٩٥٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٠/ ٤٣.

(٣) فتح البيان، صديق خان القنوجي، ٥/ ٢٢٠.

اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٨-١٤٥].

ومعنى هذه الآيات: أن الله تعالى يبشر المنافقين -على سبيل التهكم-، وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، يبشرهم بأقبح بشارة، وهي العذاب الأليم الموجع، وذلك بسبب اتخاذهم الكافرين أولياء عن طريق محبتهم ومعاونتهم ونصرتهم، في حين أنهم تركوا ولاية المؤمنين، فما الذي دفعهم إلى هذا؟ هل يبتغون العزة ويطلبونها عندهم؟ فإن العزة الحقيقية لله عز وجل، وفي موالاته وموالاة المؤمنين.

يقول السعدي رحمه الله: «وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين، وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم»[1].

ثم يخاطب الله تعالى كلَّ من أظهر الإيمان سواء كان مؤمنًا حقيقيًّا أم منافقًا، أن الله تعالى نزل عليكم في القرآن العظيم أنه إذا سمعتم الكافرين يكفرون بآيات القرآن، ويستهزئون بها، فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا بحديث آخر، ويتركوا الخوض في القرآن، فإنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر، ثم هددهم الله عز وجل بأنه سوف يجمع الفريقين: الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم؛ وذلك لأن المرء يحشر مع من أحب، ولا يخفى ما في هذا من وعيد وتحذير من مخالطتهم ومجالستهم.

ثم ذكر الله تعالى تربص المنافقين

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٩.

بالمؤمنين، فهم ينتظرون بهم الدوائر، فإن كان للمؤمنين غلبة على الأعداء، وحازوا الغنائم، قال المنافقون للمؤمنين: أعطونا مما غنمتموه من الكافرين، وإن كان للكافرين غلبة على المؤمنين، قال المنافقون للكافرين: ألم نكن قادرين على قتلكم وأسركم لصالح المسلمين؟ فأبقينا عليكم، وثبطنا عزائم المسلمين حتى انتصرتم عليهم، فهاتوا نصيبنا مما أخذتم، فإننا نواليكم، ولا ندع أحدًا يصيبكم بأذى.

ثم بين الله تعالى مصير الفريقين: المنافقين والمؤمنين، وهو أنه سوف يحكم ويفصل بينهم بالحق، ولن يمكن الكفرة من رقاب المؤمنين، فيبيدوهم ويستأصلوهم، فإن العاقبة للمؤمنين في الدنيا والآخرة[1].

وبعد ذلك أخبر الله تعالى عن سلوك المنافقين الخاصِّ، فهم يخادعون الله عز وجل إذ يظهرون الإيمان به، وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهم على خلاف ذلك، فالخداع هو أن تجعل من تخدعه يرى منك ما يحبه، وتستر عليه ما يكرهه، فعاملهم الله تعالى بالمثل، فأراهم ما يحبون، وستر عليهم ما يكرهونه منه وهو العذاب الذي أعده الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة.

فإن الله جل جلاله لا يخادع، فهو العالم بالسرائر والضمائر، وبالإضافة إلى هذا أخبر الله تعالى أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متباطئين متثاقلين؛ لأنهم لا يؤمنون بالثواب الأخروي، فهم يراءون المؤمنين بالأعمال الصالحة حتى لا يتهمونهم بالكفر، كما أنهم لا يذكرون الله تعالى إلا قليلًا؛ وذلك لعدم استقرار الإيمان في قلوبهم، وعدم حبهم لله عز وجل، فهم مذبذبون بين الإيمان والكفر، فهم فريق ليسوا بالمؤمنين الكاملين في إيمانهم، ولا بالكافرين الكاملين في كفرهم، فهم دائمًا في تردد وحيرة، وهذه هي حالة يجعل الله تعالى فيها من يضله الله عز وجل، فلا يوجد سبيل إلى اهتدائه[2].

حينئذٍ حذر الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا فعل المنافقين، ويوالوا الكافرين، فأمرهم ألا يتخذوا الكافرين نصراء وأعوانًا يصاحبونهم ويصادقونهم ويناصحونهم، ويسرون إليهم بالمودة، ويفشون سرائر المؤمنين وأحوالهم الداخلية، فإن موالاة الكافرين دليل على النفاق، ولا يصدر هذا إلا عن منافق، فهل يريد المؤمنون أن يجعلوا لله عز وجل على أعمالهم حجة بينة يستحقون بها عقابه إذا اتخذوهم أولياء.

ثم أوضح الله تعالى عقوبة المنافقين على أعمالهم، والتي كان من ضمنها موالاتهم للكافرين، فجعل مكانهم في

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٢٨٧.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥٦٠.

الطبقة السفلى من النار، والنار سبع دركات، فهي متداركة بعضها فوق بعض، والسبب في هذه العقوبة دون غيرها وأنها أشد من عقوبة الكافر نفسه، هو أن المنافق مثل الكافر في الكفر، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله، وهذا العذاب لهم لن يجدوا أحدًا ينقذهم منه، أو يخففه عنهم[1].

ثالثًا: ولاية الظالمين لبعض وآثارها:

تحدث القرآن الكريم أيضًا عن ولاية الظالمين لبعضهم البعض، والآثار المترتبة على هذه الولاية.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٦-١٩].

والمعنى: أن الله عز وجل يبين في هذه الآيات مدى إنعامه على بني إسرائيل، فقد آتاهم التوراة، ومَنَّ عليهم بالحكم والنبوة في ذريتهم، ورزقهم الطيبات الحلالات، وفضلهم على عالمي زمانهم، فلم يكن أحد في زمانهم أكرم على الله تعالى منهم، كما أعلمهم وأخبرهم بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ووضح لهم صفاته وزمانه وأمره، ولكنهم اختلفوا، وسيحكم الله تعالى ويقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جعله الله عز وجل على سنة وطريقة من الدين بعد موسى عليه السلام، وأمره باتباعها وعدم الحيد عنها إلى أهواء الكافرين، وذلك أن الكافرين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك، فذكر الله تعالى أنه إن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم أهواءهم، فإن هؤلاء الكافرين لن يدفعوا عنك من عذاب الله تعالى شيئًا، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض في المحبة والنصرة والموالاة، أما الله جلَّ جلاله فهو ولي المتقين وناصرهم ومؤيدهم، وما أشد الفرق بين الولايتين![2].

هذا وقد بيَّنَ الله تعالى الآثار المترتبة على ولاية الظالمين لبعضهم البعض، وذلك في الحوار سيدور بين الله تعالى، وبين الجن والإنس يوم القيامة ساعة الحشر،

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٥/ ٣٢٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٢٤٣، مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٣٠٢.

فيقول جلَّ جلاله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٨-١٢٩].

فيخاطب الله تعالى الجن أنكم أضللتم كثيرًا من الإنس، وجعلتموهم أتباعًا لكم في عبادة غير الله تعالى، ومخالفة أمره وتوحيده، فيقول أولياء الجن من الإنس: لقد تعاون بعضنا بعضًا في معصية الله عز وجل ومخالفة أمره، كما انتفع بعضهم ببعض بأنواع من المنافع، منها: أن الجني يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته وتعظيمه له، واستعانته به، والإنسي يستمتع بالجني أيضًا حين ينال أغراضه، ويبلغها بسبب خدمة الجني له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجني، فيخدمه الجني، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية.

وقول الإنسي: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ على معنى أنه قد حصل منا من الذنوب ما حصل، وبلغنا أجلنا الذي أجلته لنا من الموت والبعث، فافعل بنا الآن ما تشاء، فالأمر أمرك، والحكم حكمك، وكأنهم يتضرعون إلى الله عز وجل، ولكن ليس هذا وقته.

فيقول الله عز وجل: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: إن النار مقامكم خالدين فيها، فقد وسع علمه تعالى الأشياء كلها، وكذلك حكمته وسعت الأشياء كلها، ثم نسب الله تعالى الولاية إلى نفسه.

فدل هذا على أنها من الله تعالى حيث خلق سبب الولاية منهم، فكما ولى الجن المردة، وسلطهم على إضلال أوليائهم من الإنس، وعقد بينهم عقد الموالاة والموافقة بسبب كسبهم وسعيهم في ذلك، فهذه سنة الله تعالى حيث يولي كلَّ ظالم ظالمًا مثله، يحثه على فعل الشر، ويجيبه إليه، وينفره من فعل الخير، ويزهده فيه، فهذا يعد من عقوبات الله تعالى العظيمة التي لها أثر شنيع، وخطر بالغ؛ وذلك لأن العباد إذا كثر الظلم والفساد فيهم، ومنعوا الحقوق الواجبة بينهم، ولى الله تعالى عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم أضعاف ما منعوا من حقوق الله تعالى وحقوق عباده الواجبة فيهم، ويفهم من هذا بمفهوم المخالفة أنه إذا صلح أمر العباد، واستقاموا على دين الله عز وجل، أصلح الله تعالى لهم ولاة أمورهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف[1].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي،

أساليب القرآن في الحديث عن الولاء

استخدم القرآن الكريم في حديثه عن الولاء مجموعة من الأساليب، و كان منها ما يأتي:

أولًا: النهي:

فقد استخدم القرآن الكريم (لا) الناهية للتعبير عن عدم اتخاذ الكافرين سواء كانوا مشركين أم يهودًا ونصارى، نهاهم أن يتخذوهم أولياء من دون المؤمنين، ومن الآيات القرآنية التي استخدمت هذا الأسلوب: قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

قال الزمخشري: «لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علل النهى بقوله ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي إنما يوالي بعضهم بعضًا؛ لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر»[1].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ [الممتحنة:١٣].

وسورة الممتحنة كما بدئت بالنهي عن موالاة الكفار عمومًا، وعن اليهود خصوصًا -كما مر سابقًا- كذلك ختمت السورة بالنهي الوارد في هذه الآية، وهذا للتأكيد على عدم موالاتهم، وتنفيرًا للمسلمين عن هذه الولاية، فينهى الله عز وجل المؤمنين عن تولي هؤلاء القوم المغضوب عليهم، والملعونين، فإنهم قد يئسوا من ثواب الآخرة؛ لأنهم عاندوا النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم بصدقه وصدق نبوته، فهؤلاء قد يئسوا كما يئس الكفار من رجوع أصحاب القبور الذين ماتوا على الشرك إلى الدنيا واللقاء بهم[2].

ثانيًا: الاستفهام:

كان لهذا الأسلوب النصيب الأكبر في الحديث عن الولاء، وهو أسلوب غرضه الإنكار؛ للتأكيد على نهي اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، والأمثلة عليه كثيرة، منها -على سبيل المثال لا الحصر-: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٤٤].

أي ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن

٤/ ٢٥٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٧٣.

(١) الكشاف، ١/ ٦٤٢.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٦٦٣.

مصاحبة الكافرين ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أسرار المؤمنين وأمورهم الداخلية، ولهذا قال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي أتريدون أن تجعلوا لله تعالى حجة ليعاقبكم بموالاتكم الكافرين؟[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

وتقدم تفسيرهما، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الأنعام:١٤].

والمعنى: يأمر الله عز وجل النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: أيعقل أن أتخذ إلهًا يتولاني غير الله جل جلاله، وهو الذي خلق السماوات والأرض وابتدأهما، كما أنه هو الذي يرزق خلقه ولا يخلق، وقد أمرني الله تعالى أن أكون أول من يسلم من خلقه[2].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

والمعنى: لقد كرم الله عز وجل آدم عليه السلام عندما خلقه، فأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم إلا إبليس، فتكبر على أمر الله تعالى، ولم ينفذه، فينكر الله تعالى على خلقه الذين اتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دون المؤمنين، وكأنه يقول لهم: أفتطيعونه وتتركون أمر الله جلَّ جلاله وهم أعداء لكم؟! فبئس ما استبدلوا بولاية الله تعالى ولاية الشيطان[3].

وغير ذلك من الأمثلة القرآنية، فأسلوب الاستفهام كان واضحًا ومتمثلًا في همزة الاستفهام الذي كان غرضه إنكار اتخاذ الأولياء من الشياطين والكافرين والمنافقين واليهود والنصارى من دون المؤمنين.

ثالثًا: التحدي:

وهو أسلوبٌ يقصد من خلاله تعجيز الطرف الآخر، وإظهار كذبه فيما ادعاه، وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب في حديثه عن الولاء، حيث تحدى الله عز وجل فيه اليهود حيث قال جل جلاله: ﴿قُلْ

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ١/ ٤٥١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٩٨.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٣٥٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٦-٧].

فقد زعم اليهود أنهم أولياء لله تعالى من دون الناس جميعًا، فأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يطلب من اليهود أنهم إن كانوا صادقين في زعمهم هذا فليتمنوا الموت؛ وذلك ليستريحوا من كربات الدنيا وهمومها وغمومها، وينتقلوا بالموت إلى روح الجنان ونعيمها، فإن الله تعالى لا يعذب أولياءه، ولكن الله جلَّ جلاله يعلم أن اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا بسبب ما اقترفوا في هذه الدنيا من آثام، وما اجترحوا من سيئات، وكذلك فالله أعلم بمن ظلم نفسه، وجعلها تكفر بالله عز وجل[1]، فأسلوب التحدي في هذه الآية واضح وبارز.

رابعًا: التهديد:

وهو أسلوب يحمل معنى التخويف والتوعد للمؤمنين إن والوا الكافرين وناصروهم وصادقوهم، ومن هذه الآيات التي استخدمت هذا الأسلوب، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

فبعد أن نهى الله عز وجل عن موالاة اليهود والنصارى؛ لأن بعضهم أولياء بعض، فكلهم يضمرون للمؤمنين البغضاء والشر، وهم وإن كانوا في الظاهر مختلفين إلا أنهم متفقون فيما بينهم على كراهية الإسلام والمسلمين والكيد لهم، ثم هدد المؤمنين أن من يوالي المشركين منهم، فإنه يعد من جملتهم، والحكم الذي يسري عليهم، يسري عليه كذلك، ولا يخفى أن في هذا تغليظًا من الله عز وجل، وتشديدًا في وجوب مجانبة المخالفين في الدين واعتزالهم[2].

ومن هذا الأسلوب أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

فقد أخبر الله عز وجل أن الكفار بما أنهم متفقون على الكفر، فبعضهم أولياء بعض، فلا يوالي هؤلاء الكفار إلا كافر مثلهم، ثم هدد المؤمنين أنهم إن لم يوالوا المؤمنين أمثالهم ويعادوا الكافرين، فإنه سوف يحصل من الفساد والشرِّ ما لا ينحصر من اختلاط الحقِّ بالباطل، والمؤمن بالكافر، وإلغاء بعض العبادات الكبرى مثل: الجهاد، والهجرة وغير ذلك من مقاصد الشرع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٧٩.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٦٢.

والدين التي تفوت وتضيع إذا لم يتخذ المؤمنون بعضهم أولياء بعض[1].

ومن الآيات التي استخدمت هذا الأسلوب أيضًا قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقد تقدم تفسيرها، ومثله أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

الولاء في المثل القرآني

كان لموضوع الولاء نصيب في أمثال القرآن الكريم، ومعلومٌ أن من أغراض الأمثال القرآنية تقريب الصورة المعنوية إلى الذهن بتشبيهها بشيء مادي محسوس يدركه العقل البشري.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله جل جلاله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣].

فيعد هذا مثلًا ضربه الله تعالى لمن عبد غيره من الأصنام والأوثان من أجل التعزز والتقوي وحصول المنفعة، ولكن الأمر في حقيقته غير ذلك. فمثل هذا كمثل العنكبوت التي هي من الحشرات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت وأوهنها.

فهذه العنكبوت اتخذت لها بيتًا يقيها من الحر والبرد والآفات، ولكنها ما ازدادت باتخاذها هذا البيت إلا ضعفًا ووهنًا، فكذلك هؤلاء الذين يتخذون الأولياء من دون الله عز وجل، فهم فقراء ومحتاجون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٧.

وعاجزون وضعفاء من جميع الجوانب، فحين اتخذوا الأولياء ما ازدادوا إلا ضعفًا إلى ضعفهم، وعجزًا إلى عجزهم، ووهنًا إلى وهنهم.

وذلك لأنهم اعتمدوا عليهم في كثير من المصالح والأمور من أجل أن يتعززوا بهم، ويستنصروهم، لكن هؤلاء الأولياء خذلوهم، ولم يحصلوا منهم على أدنى منفعة، فلم يغنوا عنهم من عذاب الله عز وجل شيئًا حين نزل بهم، ولم يدفعوا عنهم ما حل بهم عند سخط الله تعالى، ولو كانوا يعلمون حقيقة أمرهم ما اتخذوهم أولياء، وللجؤوا إلى الله جل جلاله الذي إذا تولاه عبدٌ وتوكل عليه، فإن الله عز وجل يكفيه مؤونة دينه ودنياه، ويزيده قوة في قلبه وبدنه وحاله وجميع أعماله.

فلما بين الله تعالى ضعف آلهة المشركين، وأنها ليست بشيء؛ بل هي أسماء سموها، وأوهام وتخيلات ظنوها واعتقدوها، فعبدوها من دون الله عز وجل، كما قال تعالى عنها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣].

وقال فيها أيضًا: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦].

وعند التحقق فيها يتبين للعاقل أنها ليست بآلهة، فالله تعالى هو الذي له القوة التي قهر بها جميع مخلوقاته، كما أنه هو الحكيم الذي يضع الشيء في محله، فهو الذي أحسن خلق كل شيء وأتقنه.

ثم بين الله عز وجل أنه لا يضرب هذه الأمثال إلا لأجل أن ينتفعوا ويتعلموا، فهي تقرب الأمر المعقول إلى الذهن بأمر محسوس، فيتضح المطلوب منها، ويقف العقل البشري أمامها عاجزًا عن الرد والجدال[1].

ويتجلى مثالٌ آخر على موضوع الولاء في المثل القرآني، فعندما قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

فقد أنكر الله عز وجل على المشركين في هذه الآية اتخاذهم الشياطين أولياء من دون المؤمنين، وبين في موضع آخر حال هذا الشيطان بعد أن يتخذه الإنسان وليًا، ويجعله يكفر بالله عز وجل، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٣١.

﴿ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر:١٦، ١٧].

فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى؛ ليبين حال اليهود والمنافقين الذين لا يواجهون المسلمين بالمبارزة والمقابلة، وهذا لشدة جبنهم وهلعهم، فلا يقاتلونهم مجتمعين؛ بل يقاتلونهم من وراء الحصون والخنادق، ومن خلف الأسوار التي يستترون بها، وقد لمست الأمة الإسلامية والعربية هذا الأمر في حروب اليهود في فلسطين في عصرنا الحاضر، وقد عبر الله تعالى عن جبنهم هذا في قوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

فحروبهم وعداوتهم فيما بينهم شديدة وقوية وقاسية، والظاهر أنهم متوحدون ومتفقون، ولكنهم في حقيقة الأمر مختلفون ومتفرقون؛ لما بينهم من الأحقاد الشديدة والضغائن الكثيرة، فهم قوم لا يعقلون أمر الله عز وجل الذي فيه الحق، كما لا يدركون أن سر النجاح في هذه الحياة الدنيا هو الوحدة، ولو عقلوا هذا لعرفوا الحق واتبعوه، فتوحدوا ولم يختلفوا.

فحريٌّ بالمسلمين في هذا العصر، وجدير بهم أن يكونوا خلافهم، فيكونوا متوحدين متفقين، صفًا واحدًا على قلب رجل واحد كالبنيان المرصوص، وأن يعتمدوا في ذلك على أنفسهم، ولا يلتمسوا أية حلول واهية ضعيفة من هنا أو هناك، ثم ذكر الله تعالى أحوالًا مشابهة لهم، ومنها: أن هؤلاء المنافقين حين وعدوا اليهود بالمناصرة والمؤازرة في حرب المسلمين، كمثل الشيطان الذي سول للإنسان الشر، وأغراه بالكفر، وزينه له، وحمله عليه، فلما لبى الإنسان ما يريده الشيطان، وكفر بالله عز وجل، تبرأ الشيطان منه، وتنكر له يوم القيامة، وقال له على وجه التبري منه: إني أخاف عذاب الله رب العالمين إذا ناصرتك.

ولاشك أن هذا مثلًا في غاية السوء، وشديد الوقع على النفس؛ لذلك وضح الله تعالى بعد هذا المثل ما يوجبه من العقاب، وهو أن عاقبة الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الذي استجاب لطلب الشيطان وكفر، أنهما صائران معًا إلى نار جهنم خالدين فيها على الدوام، وهذا العقاب هو جزاء الكافرين جميعًا والذين منهم اليهود والمنافقين[1].

وبهذا يتبين أن ضرب الله عز وجل للأمثال في القرآن الكريم إنما هو للمسائل الجليلة، والمطالب العالية، والأمور العظيمة

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٨/ ٩٨.

مثل موضوع الولاء في القرآن، وأهل العلم أحق بها من غيرهم؛ لأنهم وحدهم هم المنتفعون بها بعد تعقلها وتدبرها.

موضوعات ذات صلة:

الأخوة، البراء، الحرب، السلم، السماحة، السياسة، العلاقات الدولية